﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: 94-96]

❁ مُنَاسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لمَّا تتابَعَت الأدلَّةُ في الآياتِ السَّابقةِ على أنَّهُ لا حظَّ لليهودِ في الآخرةِ غيرُ النَّارِ، وذلكَ نقيضُ دعواهُمْ أنَّهمْ آمَنوا بِمَا أُنْزِلَ إليهِمْ وأنَّ النَّارَ لا تَمسُّهُمْ إلّا أيّامًا مَعدودةً، وأنَّ الجنَّةَ لَهُم خالصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ، خَتَمَ هذهِ الأدلّةَ بإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ الواضحةِ، فخاطبهم مهدّدا مُقرّعا: إنْ كنتم صَادقينَ في إيمانِكُم فَتَمَنَّوا الموتَ، وجاءَ الحُكمُ الإلهي بأنَّهم لنْ يتَمَنَّوه أبدًا لِعلمِهم بِمَا قدَّمت أيديهم مِنَ الأقوالِ السَّيِّئةِ، والأفعالِ القبيحةِ، والظُّلمِ الذي صارَ وَصْفًا راسخًا فيهم، ولِتبلغَ الحُجَّةُ مَبلغَها أثبتَ لَهُم ما هوَ فوقَ ذلكَ مِنْ شدَّةِ حِرصِهم على الضِّدِّ، وهو كونُهم أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وأحرصَ مِن الذين أشركوا[1]؛ لِتدلَّ هذهِ الحُجَّةُ البالغةُ المُجتمِعَةُ على ظُهورِ كَذِبِهم فيما يَدَّعونَه، ولِيزدادَ الذين آمنُوا إيمانًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾: مُركَّبٌ وصْفيٌّ مُؤلَّفٌ مِن موصوفٍ (الدار) وصفتِهِ (الآخرة)، والدَّارُ: مُؤنَّثةٌ؛ أَصلُها دَوَرٌ، بمعنى: إحاطةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِنْ حَوَاليه، وسُمِّيَ المَنزلُ دارًا؛ لإحاطتِها بأَهلِها، أَو لِدورانِ أهلِها بها، وتُطلقُ الدَّارُ ويُرادُ بها: القبيلةُ والبلدُ والدُّنيا كلُّها، وإذا أُضيفتْ فيكونُ معناها بِحسبِ ما تُضاف إليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/61.

فيُقال: دارُ السَّلام ودارُ البَوارِ ودارُ الفاسقين، ودارُ الدُّنيا ودارُ الآخرةِ؛ إشارةً إلى مَقَرَّي النَّشأةِ الأُولى والآخرةِ، وإنَّما وُصِفَت الدَّارُ بالآخرةِ بالنَّظَرِ إلى أَنَّها آخِرةٌ لأُولى كانت قبلَها، وكلُّ الآياتِ التي وردَ فيها تركيبُ ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بالوَصفِ أَو بالإضافةِ في القرآنِ الكريمِ جاءتْ في سِياقِ المَدحِ، وَأَنَّهُ مَنزلٌ مَرغوبٌ فيه، والمرادُ هو الجَنَّةُ.

2) ﴿خَالِصَةً﴾: الخاء واللّام والصّاد أصلٌ يدلُّ على تَنْقِيَةِ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبِهِ بعد شَوْبٍ، وخَلَصَ الشَّيءُ: إذا صَفَا وزَالَ عنه شَوْبُه، ومنه الإخلاصُ: وهو صَفاءُ التَّوحيدِ بالتّبرّي عنْ كُلِّ ما دُونَ اللّهِ تَعالى، وخَلَّصْته مِن كذا تَخْليصًا؛ أي: نجّيته فتَخَلَّصَ، فيكونُ ﴿خَالِصَةً﴾ بمعنى: صافيَة.

ويُقال: هذا الشَّيء خالصةٌ لكَ؛ أَي: خَالِصٌ لَكَ خاصَّةً لا يُشاركَ فيهِ أَحدٌ، ومنه اسْتَخْلَصَهُ لنَفْسِه؛ أَي: استخَصَّه، فيكونُ معنى خالصةً: خاصَّةً، وهو قريبٌ مِنْ معنى الصَّفاءِ.

وقَدْ أُوِّلَتْ خَالِصَة في الآيةِ على معنى: الصَّفاءِ، ومعنى: الخاصَّة؛ أَي: إنْ كانت الدَّارُ الآخِرةُ عندَ اللّهِ لكم صافيةً مِنْ دُونِ النَّاسِ، أَو لَكُم خاصَّةً مِنْ دُونِ النَّاسِ[1]

3) ﴿دُونِ﴾: ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ لِلمَكانِ الأَقْرَبِ مِنْ مَكانٍ آخَر، ففيه معنى التَّجاوز، ثمَّ استعير لتفاوتٍ في المَراتِبِ المعنويَّةِ في الأَوصافِ والأَحوالِ؛ تَشْبِيهًا لهَا بالمراتبِ المحسوسَةِ، فَقيل: زيدٌ دُونَ عَمْرٍو في الشّرف، ثمَّ اتُّسِعَ في هَذا المُسْتَعَارِ فَاسْتُعْمِلَ في كلِّ تجَاوُزِ حدٍّ، وتخطِّي حُكمٍ إِلَى حُكمٍ، وَإِنْ لم يكن هُناكَ تفَاوتٌ وانحطاطٌ، وَيُسْتَعْمَلُ للاختصاصِ وقطعِ الشَّركَة، تَقول: هَذا لي دُونَك أَو من دُونِك؛ أَي: لَا حقَّ لَك فِيهِ وَلَا نصيبَ، وبمعنى: سِوَى، ويَأْتِي بِمَعْنى: الانتقاص في المنزلة أَو المَكَان أَو المِقْدَار[2]، وكلّ هذه المعاني ترجع إلى معنى التَّجَاوزِ.

4) ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: الميم والنّون والحرف المعتلّ (الياء) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ القَضَاءِ بِهِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ المَاني؛ أَيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ، وسُمِّيَ الموتُ مَنِيَّةً؛ لأَنَّهُ أجلٌ مقدَّر لكلّ حيٍّ، وتمنّيتُ الشَّيْء قدّرتُه، وأحببتُ أَنْ يَصير إليّ، فالتمنّي تقديرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/365، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(2) الكفوي، الكليات، تح: عدنان درويش: 1/451.

شيءٍ في النَّفسِ وتصويرُه فيها معَ محبَّةِ حصولٍ لذلكَ الشَّيءِ، وأكثرُ ما يكونُ عنْ ظَنٍّ وتَخمينٍ؛ ولهذا كان الكَذِبُ لهُ أملكَ، وكانَ غالبُ التَّمنّي كَذِبًا وتصوُّرَ مَا لا حقيقةَ له؛ ولذلكَ وقعَ في المستحيلاتِ عكسَ التَّرجي، فلا يقعُ إلَّا في المُمْكنِ، يقال: ليتَ شَبابي يعودُ؛ لاستحالةِ رجوعِ الشَّبابِ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فَلَا يكونُ إلَّا قولًا، وَهُوَ أَنْ يَقُول أَحدُهم: ليتَهُ مَاتَ، فالتَّحدي وَقعَ بالتَّمنّي لفظًا، بكلمةِ (ليت)، أو بلفظِ التَّمنّي نفسِه، ومَعنى (تمنَّوا المَوْتَ): اسألوا الموتَ واطْلُبوه بلسانِكُم[1].

5) ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: المِيمُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومنه الموت: ضدّ الحياة؛ فموت الحي -بخروج روحه- ذهابٌ لقُوَّته، والمَوْتُ خَلْقٌ مِنْ خَلق اللهِ تَعَالَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[2].

6) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: جمع صادق، وأَصلُه صَدَقَ، ويَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَهُ، ومِنْ ذَلِكَ الصِّدقُ ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، إذ هُوَ بَاطِلٌ. والصَّادق مَن يقوم به وصفُ الصِّدق.

7) ﴿أَبَدًا﴾: الأبدُ هو الزَّمان الممتدّ الّذي لا يتجزأُ كما يتجزأ الزَّمانُ، ويُعبَّرُ بالأبد عن الزَّمنِ الطَّويلِ الّذي ليس بمحدودٍ، قَالَ الرُّمَّانيُّ: فَإِذَا قُلْت: لَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا؛ فَالْأَبَدُ مِنْ لَدُنْ تَكلَّمْتَ إلَى آخرِ عُمْرِك[3].

8) ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: مُرَكَّبٌ لُغَويٌّ من الفعلِ والفاعلِ، والقِدَم يدلّ على سبقِ الشَّيء، وَتَقَدَّمْتُ الْقَوْمَ سَبَقْتُهُمْ، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هو من التَّقْدِمَةِ، وهي وضعُ الشَّيءِ قُدَّامًا، أي: جهة الأمام، وبعد التَّركيبِ صار بمعنى: ما أَسْلَفتْه أيديهم وصار أمامًا لهم.

9) ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جَمْعُ ظَالِم، والظُّلْمُ هو وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِهِ المُختَصِّ به؛ إمّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِهِ، وَيقالُ فيما يَكثُر وفيما يَقِلُّ مِنَ التَّجاوزِ؛ ولهذا يُستعملُ في الذَّنبِ الكبيرِ، فيُقالُ للكافِرِ: ظالمٌ، وأعظمُ الظُّلمِ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 1/123.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مَوَتَ).
(3) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/309، والرّاغب، المفردات: 1/59، والفيومي، المصباح المنير: 1/1.

الشِّركُ باللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]، كما يُستعملُ الظُّلمُ في الذَّنبِ الصَّغيرِ، فيقالُ لصاحبِهِ: ظالمٌ[1].

10) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ﴾: أصله من وَجَدَ الشيء: بمعنى أصابَه على صِفَةٍ، نحو: وجدتُ زيدًا كريمًا، ومصدرُه وِجْدان[2].

11) ﴿أَحۡرَصَ﴾: الحاء والرّاء والصّاد تدلُّ على مَعْنَيَيْنِ؛ هما: الجَشَع، و: الإفراط في الرَّغبةِ، يُقالُ: حَرَصَ يَحرِصُ حِرْصًا فهو حَريصٌ، وحَريصٌ عَلَيْك مَعْنَاهُ حَرِيصٌ على نفعِكَ، ويُقالُ: حَرَصَ على كذا يَحْرِصُ عليه إذا فَرَطَ في محَبَّتِه وإمساكِهِ، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ [النحل: 37]؛ أي: إنْ تُبالِغْ في طلبِك لذلكَ؛ تنبيهًا على وُفورِ شَفَقَتِهِ ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى الإفراطِ في الرَّغبَةِ في الحياةِ والشَّرَهِ فيها[3].

12) ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، ويَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، والفعل ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ من الأصل الأول، فالشِّرْك أنْ يُوجدَ شَيءٌ لاثنينِ فَصاعِدًا، والشِّرْكةُ: مُخالطة الشَّريكين، يقالُ: اشْتَرَكْنَا بِمَعْنى تَشاركْنا، وَجمعُ الشَّريكِ: شُرَكاءُ، وشِرْكُ الإنسانِ في الدّين ضربان؛ أحدُهما: الشِّرْكُ العظيم، وهو: إثباتُ شريكٍ للّهِ تعالى، يقال: أَشْرَكَ فلانٌ باللّه، وذلك أعظمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48]، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، والثاني: الشِّرْكُ الصّغير، وهذا يُصيب المؤمنين ولا يخرجهم من دائرة الإسلام، وهو مراعاةُ غيرِ اللّهِ معَه في بعضِ الأمورِ، وهو الرِّياءُ المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: 106][4].

13) ﴿يَوَدُّ﴾: الفعل ودَّ يَوَدُّ يدلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، فيقال: وددْتُهُ بمعنى أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ محبَّة الشَّيءِ، وتمنّي حصولِه، فيكمنُ فيه معنى التَّمني، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد)، والرضي، شرح الكافية: 4/150.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حرص).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب الأصبهاني، المفردات: (شرك).

كذا؛ إذَا تَمَنَّيْتَهُ، والفعلُ أَوَدُّ يُستعملُ في المحبَّة وفي التَّمنّي، ومصدرُ الفعلِ وَدَّ إذا كان بمعنى المحبَّة هو الوُدُّ، وإذا كان بمعنى التَّمَنِّي فمصدره الوَدَادَةُ، ومن المودَّةِ التي تقتضي المحبَّةَ قولُه تعالى: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: 33]، ومن المودَّةِ التي تقتضي معنى التمنّي قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: 96]، وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ [القلم: 9]، وإذا جاءت الكلمةُ بمعنى التَّمنّي فهي مُشْرَبَةٌ معنى المَحبَّة والرَّغبَة[1].

14) ﴿يُعَمَّرُ﴾: أَصلُه عَمَرَ يَعمُر، والاسمُ العُمُر، والعُمُرُ والعَمْرُ واحد؛ لكنْ خُصَّ القَسَمُ بالعَمْرِ بفتح العين دون العُمُرِ، كقوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ [الحجر: 72]، والعُمُر اسمٌ لِمُدَّةِ عِمارةِ البَدَنِ بالحياةِ، وعمَّرَه اللّٰه تعميرًا؛ أي: طوَّلَ اللّٰه عُمُرَهُ فهو مُعَمَّرٌ، وعَمَّر الرجلُ عُمُرًا: عَاشَ زَمَانًا طَويلًا أَكثرَ مِنْ أَقرانِه، وَعَمَّرَ المَالُ صَارَ كثيرًا وافرًا، وعمّرَ المنزلُ بأَهْلِه إذا كَانَ مسكونًا بهم فَهُوَ عَامر[2].

15) ﴿سَنَةٍ﴾: تدلُّ على الزَّمانِ، وهو الحَولُ اثنا عَشَرَ شَهرًا، وغَلَبَتِ السَّنَةُ في الحَولِ المُجْدِبِ الذي فيه ضِيقٌ ومَشَقّةٌ، ويقالُ: أَصابتِ النَّاسَ سَنَةٌ؛ أَي: جَدْبٌ، وغلَبَ العامُ في الحَولِ المُخْصِب[3].

16) ﴿بِمُزَحۡزِحِهِۦ﴾: فِعلُه زَحْزَحَ، وأَصلُه زاحَ أو زحَّ؛ يُقال: زَحَّ الشَّيءَ وزَحْزَحَه: دفعَه ونحّاه عن موضعِه، وباعدَه منه وأَزالَه، وزَحْزَحْتُهُ فتَزَحْزَحَ وانْزَاحَ؛ أي: تَبَاعَدَ، وقال ابنُ عرفة: بِهِ يُسمَّى المُزاحُ؛ لأَنَّه أُزيحَ عن الحَقِّ[4]، وتفيد الزَّحزحَةُ الانتقالَ من مكانٍ إلى مكانٍ على وجهِ التَّباعدِ عنه قليلًا بِبُطءٍ وثِقَلٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَمرَ اللّٰه تعالى رسولَهُ ﷺ أَنْ يَتحدَّى اليهودَ في ادِّعائِهم أَنَّ الدَّارَ الآخرة بِنعيمِها خالصةٌ لَهُم من دونِ النَّاسِ، ويقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم هذه فتمنوا الموت واطلبوه، لتنالوا هذه المنزلة بسرعة، وتستريحوا من أعباء الحياة الدنيا وهمومها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد).
(2) السمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (عمر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).
(4) الهروي، الغريبين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زحح).

وأَخبرَتِ الآيةُ أَنَّ طَلبَ التَّمنّي لنْ يقعَ منهم أبدًا؛ لعلمِهم بأَنَّهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيدُ بهم نازِلٌ، والموتُ بهم حالٌّ؛ ولِمعرفتِهم بصدقِ محمَّدٍ ﷺ، وأَنَّه رسولُ اللهِ ﷻ، وأَنَّه لمْ يُخبرْهُم خبرًا إلَّا كانَ حقًّا كمَا أَخبَر، فهمْ يَحذرونَ تَمَنّيَ الموتِ؛ خوفًا مِنْ أنْ يَحِلَّ بهم عِقابُ اللهِ بِما كسبتْ أيديهمْ مِنَ الذُّنوبِ، فَهمْ ظالمونَ لِكذبِهم وشَناعةِ أَعمالِهم، واللهُ عليمٌ بِمَا يفعلونَه مِنَ الظُّلم، وسَيُجازيهم على ظلمِهم، ولتَجِدَنّ - أيها النبي - اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على الحياة أيًّا كانت هذه الحياة من الذلَّة والمهانة، بل هم أحرص من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، يتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة، وليس بمُبْعِدِه عن عذاب الله طولُ عمره مهما بلغ، والله مطَّلع على أعمالهم بصير بها، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من العذاب [1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْل بين الجُمل:

اتِّفاقُ الجملتين في المعنى الكليِّ، وتبايُنُهما في المعنى الجُزئيِّ

جاءَ الفصْلُ بين الجملةِ المُصدَّرِ بها في هذه الآيةِ والجملةِ المختومِ بها في الآيةِ السَّابقةِ؛ لقيامِ كلِّ آيةٍ بمعنًى مستقلٍّ في ذاته، مبيِّنٍ غرضًا واحِدًا من مجموعِ الجملتين، فالجملةُ الأُولى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ جاءَتْ لبيانِ حالِ زَعمِهم الإيمان، وأثر ذلك في أفعالِهم وأحوالِهم، وجملةُ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ جاءَتْ لإقامةِ الدَّليلِ على كذبِهم في دعوى الإيمانِ، فالجملتان اتَّفقتا على كذبِ اليهودِ، ولإظهارِ العلاقة بين الجملتين هناك مسلكان؛ أحدهما قائمٌ على كمال الاتِّصالِ، والآخرُ على كمال الانقطاع.

كَمَالُ الانقطاع: جاءَتْ الجملةُ الأولى بأُسلوبِ الذَّمِّ المفيدِ للإخبارِ، والثَّانية بأُسلوبِ الطَّلبِ القائمِ على التَّحدِّي، فتكون الجملتان قائمتين على معنَيَيْن منفصلين في الذَّاتِ، متَّصلين في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/367، والزجاج، معاني القرآن: 1/178.

المآلِ؛ إذ مآلُ ذمِّهم وتحدِّيهم إثباتُ كَذِبهم، وهذه بلاغةُ الفصْل في قطع الأولى عنِ الثَّانية؛ إذِ المآلُ واحدٌ.

كمالُ الاتِّصال: وفيه وجهان:

الأوَّل: تنزيلُ الثَّانيةِ من الأولى منزلةَ الدَّليل من الدَّعوى؛ فالثَّانيةُ مبيِّنةُ الأولى؛ لشديد الارتباطِ بينهما، فتكون الجملتان مُؤدِّيتين جملةَ المعنى المُرادِ إيصالُه، وهو كذبُ اليهودِ في زعمِهم بالدَّعوى والدَّليلِ.

الثَّاني: أن تكون الثَّانيةُ بدلًا من الأولى على نيّةِ استئنافِ القَصْدِ إلى مضمونها، ومجموعُ البدلِ معَ المُبدلِ منه أَوفى بتمامِ المرادِ وإيرادِه، ولِيظهرَ بمجموعِ القَصدينِ - البدلِ والمبدلِ منهُ - مزيدُ اعتناءٍ بشأنِ ظهورِ الحُجَّةِ عليهم[1].

بلاغةُ أُسلوبِ الشَّرطِ:

التَّهكُّمُ بزعمِ اليهودِ، وتوبيخُهم بما وقَعَ منهم من الجَزمِ بعكسِ الواقعِ المتيقّنِ

استُعمِلَت إنْ في هذا السِّياقِ، وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علمِ اللهِ تعالى القطعيِّ بأنَّ الدَّار الآخرةَ ليستْ لهم مطلقًا على ما هم عليه، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

والجوابُ: هو تنزيلُ المُخَاطَبِ منزلةَ الشَّاكِّ فيما يدَّعيه بشكلٍ قطعيٍّ؛ تهكُّمًا بزعمِه، وتوبيخًا على دعواه، وكشفًا لحقيقةِ كذِبهم بأسلوبِ الحوارِ الكاشفِ عن حقيقةِ حالِهم.

نكتةُ تقديمِ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ:

الاعتدادُ بالباطلِ والتَّعصبُ له، بغمطِ الآخرين حقوقَهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (لكم) على اسمِ كان، وأَصلُ الكلامِ: كانتِ الدارُ الآخرةُ لكم؛ للتَّخصيصِ على زَعْمِهم، بيانًا لتعريضِهم بغيرِهم، وهو ما بيَّنَه اللِّحاقُ ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي أفادَ توكيدَ معنى الاختصاصِ[2]، والمعنى: إنْ كانت الدارُ الآخرة لكم

(1) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 1/198، وبهاء الدين السبكي، عروس الأفراح: 1/327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

على الخصوصِ دون غيرِكم ممَّن جاءَ بعد موسى منْ غيرِ بني إسرائيلَ، وهو ما يُبيِّنُ تطرُّفَهم وتعصبَهم لباطِلِهم، مع معرفتِهم الحقَّ على وجهِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالدَّارِ الآخرةِ:

بلوغُ أعلى درجاتِ النَّعيمِ، وخلوصُها من مشاركةِ الآخرين

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ الدَّار الآخرة دون الجنَّةِ، وهي المُصرَّحُ بها في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: 111] في تضاعيفِ الآيات.

والجوابُ: إنَّ هذا اللَّفظَ يدلُّ على الجنَّةِ الخالصةِ من دخولِ أحدٍ سواهم؛ أي: الدَّارُ الآخرةُ التي لا دارَ بعدَها، وذلك على فرضِ وجود ديارٍ قبلَها يدخلُها غيرُهم؛ فإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لن تكون لأحدٍ سواهم، فهذا التَّركيبُ يدلُّ على المَنزلِ الأخيرِ الممدوحِ في القرآنِ والذي فيه الاستقرارُ والرَّاحةُ، ويدلُّ على الانتهاءِ والغايةِ التي تَظهرُ فيها منزلتُهم وشرفُهم؛ أي: فيما كانوا يدّعونَه.

فائدةُ تنوُّعِ قيودِ الإسنادِ:

بيانُ قسوةِ القلبِ والكبرِ والغُرورِ والغلوِّ في حبِّ النَّفس

جاءَت مقيّداتُ الإسنادِ متنوِّعةً لبيانِ غلوِّ اليهودِ في حبِّ أنفسِهم وتكبّرِهم على غيرِهم:

أوَّلًا: التقييدُ بالظَّرف﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، والمرادُ من العِنديَّةِ المنزلةُ، فهم كانوا يَظنُّونَ أنفسَهم على منزلة عظيمة ومرتبة رفيعة، وأنّ لهم عند الله شأنًا عظيمًا، "وَالعِنْدِيَّةُ عِنْدِيَّةُ تَشْرِيفٍ وادِّخَارٍ؛ أَيْ: مُدَّخَرَةٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ"[1].

ثانيًا: التَّقييدُ بالحالِ (خالِصَةً)؛ أي: صافيةً لَكم مِنْ أيِّ كَدَرٍ، وخاصَّةً بكم دون غيرِكم؛ كمَا زَعَموا في قولِهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

ثالثًا: التَّقييدُ بتأكيدِ تخصيصها لهم بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لبيانِ اعتقادِهم في فضلِهم، وعلوِّهم على النَّاس، وكأنَّ اجتماعَ النَّاسِ معهم في الجنَّةِ كَدَرٌ لَهُم، فلا تكون صافيةً لهم بهم.

فهذه القيود الثلاثةُ أبانَتِ اعتقادَهم ونظرَتهم إلى النَّاس في الآخرةِ، فما بالُك بنظرتِهم إليهم في الدُّنيا، وهو ما يُثبتُ قسوةَ قلوبِهم وتكبُّرَهم وغرورَهم وسوءَ اعتقادِهم.

دلالة (أل) بينَ العُمومِ والعَهْديَّةِ

لمعنى التَّعريف في لفظِ النَّاسِ احتمالان، وهما:

الأوَّل: الجِنسُ؛ فيُفيدُ العمومَ، وهو الظَّاهر؛ لأنَّه لم يوجدْ ههنا معهودٌ[1]، ولتكونَ على نسقِ ما كانوا يدَّعونهُ من خَصوصيَّةِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ على غيرِهم.

الثَّاني: العهدُ، ويرادُ بالنَّاسِ المسلمون؛ لِأَنَّ الخِطابَ معهم؛ فيكونُ اللفظُ عامًّا يُراد به الخاصُّ بقرينةِ السِّياق، والنُّكتةُ فيه اعتبارُ المسلمين هم النَّاس؛ لقيامِهم بمقتضى كونِهم ناسًا، وهو إيمانُهم بالقرآنِ وبنبوَّةِ محمّدٍ ﷺ، وغيرُهم ليس كذلك؛ لأنَّهم لم يتفكّروا فيؤمنوا.

والصَّحيحُ أنَّ المراد بالتَّعريفِ الجنسُ، على إرادةِ عمومِ النَّاسِ، وهو ما تُفيدُه بقيَّةُ النُّصوص، لاسيَّما في قولِهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: 113]، فبُغضُ اليهودِ لجميعِ النّاسِ، لكنَّه الأظهر في جانب المسلمين؛ لأنَّهم هم أصحابُ الحقِّ والهدى، وهم من سلبَ اليهود ما كانوا يُفاخرون به، فيدخل المسلمون في النَّاسِ دُخولًا أوَّليًّا.

بلاغة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟﴾:

تظهرُ بلاغة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟﴾ على احتمالين اثنين:

الأوَّل: أن نجعلَ المجازَ في الصِّيغةِ.

الثَّاني: أن نجعلَ المجازَ في اللَّفظِ.

حملُ المجازِ على الصِّيغةِ:

وَجَّهتِ الآيةُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يَطْلُبَ من اليهودِ تَمنّيَ الموتِ لإثباتِ صدقِهم في دعوى الإيمانِ، وغرضُ الأمرِ التَّحدِّي والتَّعجيز؛ فمن المُحالِ أنْ يَتَمَنَّوُا الموتَ، فأَمَرَهُم بِه لإثباتِ عجْزِهم

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/608.

إظـهـارُ حقائقِ نفوسِ الخَصْمِ بالأدلّةِ القاطعةِ مُمْكنةِ الحصولِ

عن ذلك؛ بسببِ معرفةِ سُرعةِ تحقُّقِ ذلك؛ لقولِه ﷺ: «لو أنَ اليهود تمنَّوا الموت لماتُوا ورأَوْا مقاعدَهم في النار»[1]، ومعرفةِ مآلِهم في الآخرةِ، فإنَّ الموتَ لأهلِ الجنَّةِ المُصْطَفَيْنَ لها خلاصٌ من الدَّارِ الفانيَةِ؛ فيتوجَّهُ الأمرُ بتمنّي الموتِ إلى مطلوبٍ ممكنِ الحصولِ[2]، بعد امتناعِ حمله على الحقيقة، والممكنُ حصولُه هنا هو بيانُ عجزِهم عنْ فعلِ المَطلوبِ؛ ليكونَ أوثقَ في بيانِ الحُجَّةِ والتَّحدي، فالغرضُ من الأمرِ التَّعجيزُ بقصْدِ بيانِ كفرِهم وحقيقةِ حالِهم.

حملُ المجازِ على اللَّفظِ:

التَّعبيرُ بالتَّمنِّي وإرادةُ الدُّعاءِ والسُّؤالِ

حُمِلَ الأمرُ على حقيقتِه، وحُمِلَ التَّمني على معنى السُّؤالِ والدُّعاء؛ فمعنى تمنَّوُا الموتَ: سلوه، وادْعُوا به على المبطلِ الكاذبِ المفتري؛ فيكون من جنسِ آيةِ المباهلة[3]؛ فالمجازُ في معنى اللَّفظةِ لا في صيغةِ الأمرِ، وهذا الوجه والذي قبلَه في حملِ الأمرِ على التَّعجيزِ في المآلِ واحدٌ؛ إذْ منتهى التَّمنِّي من قِبَلهم هو الموتُ، سواءٌ أكان المجازُ في صيغةِ الأمرِ أم في معنى اللفظِ الذي اشتُقَّ منه الأمر.

بلاغةُ الشَّرطِ في: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

التَّتميمُ في إلزامِ الخصْمِ الحُجَّةَ لما بدَأَتْه الآيةُ

استُعمِلَت إنْ في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كما استُعمِلَت في: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علمِ اللهِ تعالى بأنَّهم كاذبون، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

---

(1) أحمد، مسند أحمد: 3/24.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، تح: زرزور، ص: 305.

(3) آية المباهلة هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢﴾ [آل عمران: 61- 62]، وفيها دعا القرآن نصارى نجران إلى المباهلة، وهي بمعنى الابتهال والضراعة إلى الله بإخلاص بأن يأتي النصارى بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه بإخلاص وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبًا من الفريقين، ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان: 2/400.

والجوابُ: إنَّ استعمالَ إنْ هو لغرضِ إثارةِ نفوسِهم وتحريكِ مشاعرِهم، وفضحِهم أمامَ أنفسِهم وأمامَ العَالمين؛ فإنَّ عدَمَ الاستجابةِ للتّمني يُثبتُ كَذِبَهم، ففيه تهكُّمٌ وتقبيحٌ لصَمْتِهم وعدمِ استجابتِهم للأمرِ، فكان لا بدَّ من ذكرِ شرطٍ آخرَ يُحرِّكُهم تُجاه تحقيقِ التَّمني؛ وجودًا وعدمًا، فكانت بلاغةُ الشَّرطِ دعامةً أساسيَّةً لتتميمِ الكلامِ، ففي الآيةِ فنُّ التَّتميمِ في إلزامِ الخصْمِ الحُجَّة.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ:

حُذِفَ مفعولُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فلم يُقيَّد بكذبٍ خاصٍّ؛ لتأكيدِ التَّهكُّمِ المذكورِ في الآيةِ، فهم غير صادِقين في عمومِ أقوالِهم وأعمالِهم وادّعاءاتهم، ولو كانوا يمتلكون الصِّدقَ في شأنٍ من شؤونِ حياتِهم لصَدَقوا في إيمانِهم برسالةِ محمَّدٍ ﷺ.

تأكيدُ التَّهكُّمِ بشأنِ الكاذبين، وبيانُ أنَّ هذا دَيْدَنُهم في الحياةِ كلِّها

بلاغةُ الوَصْلِ في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾:

لمّا كان هذا الكلام خبرًا من اللّه تعالى، وليس تتمَّةً للأمر بمخاطبة اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ﴾، ناسبَ أنْ يكونَ بالواوِ الاعتراضيَّةِ[1]؛ ليُعلَمَ أنَّ جملةَ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ ليست تتميمًا لما سبقَ؛ بل هي تقريرٌ لحكمٍ إلهيٍّ قاطعٍ بأنَّهم لن يتمنّوا الموت أبدًا؛ دفعًا لتوهُّمِ أنّهم قد يتمنَّون الموتَ عِنادًا أو جَهْلًا، والجملةُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلا التفاتَ فيها، وفيها ترشيحٌ لمعنى التَّحدِّي والتَّعجيزِ الواردِ في غرضِ صيغةِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟﴾، فإنَّهم عاجزون عن مُجرَّدِ التَّمنِّي، وهذه الجملةُ الخبريَّةُ هي التي عيَّنتِ المقصودَ بالأمرِ بالتَّمني.

تقويةُ المعاني المجازيَّةِ في الجملِ الخبريَّةِ

الإعجازُ الغيبيُّ في كلمةِ ﴿أَبَدًا﴾:

وقعَ الإخبارُ بنفي تمنّي اليهودِ للموتِ مقيَّدًا بكلمةِ ﴿أَبَدًا﴾؛ إذِ النَّفيُ قد يرِد عليه الاستثناءُ أو التَّخصيصُ، بخلافِ ورودِ (أبدًا)؛

الإخبارُ باستحالةِ تمنّي الموتِ ولو بالكلمةِ الكاذبةِ

(1) التفتازاني، المطول، ص: 500.

فهي نصٌّ في استحالةِ وقوعِ ذلك منهم؛ أي: في طول عُمرهم إلى موتهم[1]، لذلك فهي "معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ، أعجَزَ بها اليهودَ، ودعاهم إلى تمنِّي الموت، وأخبَرَ أنَّهم لا يتمنَّونَه أبدًا، وهذا عَلَمٌ من أَعْلامِ نُبوَّتِه ﷺ؛ إذْ لا يُمكنُ الاطِّلاع على بواطِنِهم إلا بإخبارِ عالم الغيب، ولن يُنطقَ اللّه ألسنتهم بتمنّيه أبدًا"[2].

بلاغةُ المجازِ مع الإيجازِ في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾:

إسنادُ الفعلِ إلى الجزءِ مع إرادة عمومِ الأفعالِ باعتبارِ ظهورِ أثَرِ الكُلِّ في الجُزْءِ

يُقالُ هذا التركيبُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لِمَنْ يَفعلُ جِنايةً أو يرتكبُ جَريرةً، ثُمَّ استعمل كالمثل: على نحوِ ما تَتَمَثَّلُ به العربُ في كلامِها: هذا بِمَا جَنَتْ يَداك، وبِمَا كسَبَتْ يَداك، وبِمَا قَدَّمَتْ يَداك، فتضيفُ ذلك إلى اليدِ، ولعلَّ الجِنايةَ التي جَناها فاستحقَّ عليها العقوبةَ كانت باللّسانِ أَو بالفرجِ أَو بغيرِ ذلك من أَعضاءِ جَسدِهِ سِوى اليَدِ، وإِنَّما قيلَ ذلك بإِضافتِهِ إِلى اليدِ؛ لِأَنَّ أَكثرَ جِناياتِ النَّاس بأَيديهم، فجَرى الكلامُ باستعمالِ إِضافةِ الجِناياتِ التي يَجْنيها النَّاسُ إِلى أَيديهِمْ.

وإِسناد التَّقديم إِلى اليدِ على طريقةِ المجازِ المُرسَل[3]، بذكرِ الجزءِ الخاصّ الذي يكونُ به أَكثرُ الاكتسابِ بالأفعالِ وإِرادةِ كلِّ ما يقعُ بهِ الاكتسابُ من قولٍ أَو فعلٍ أَو اعتقادٍ؛ لأَنَّ الأفعالَ هي الظَّاهرُ من آثارِهم، والأقوالُ والاعتقاداتُ منتهى حالِها إِلى الأفعالِ، وتضمَّن الكلامُ إِيجازًا بحذفِ الضَّميرِ في (قدَّمت)، العائدِ إِلى الاسمِ الموصولِ (ما)؛ ليفيدَ أَنّ الذي تُقَدِّمُه أيديهم من السّيّئاتِ والخَطايا صارَ سجيَّةً لهم، ويحتمل أَنْ يكونَ الحذفُ لإِفادةِ العموم، والمعنى: بسبب كلِّ ما قدَّمَتْه أيديهم؛ فانظرْ كيف عبّر القرآنُ عن كثير المعاني بقليلِ اللَّفظِ مع استيفاءِ المعنى وتمامِه.

بلاغةُ الفاصِلةِ القرآنيَّة:

لمّا ذكر اللّه كذبَ اليهود فيما يدّعونَه من الإيمانِ، وأقامَ الحُجَّةَ عليهم، ناسبَ أَنْ يَختِمَ الكلامَ ببيانِ علمِه بِما قَدَّمَتْه أَيديهم من الظُّلم في أقوالِهم وأفعالِهم فقال تعالى:

(1) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.
(2) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 140.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/339.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فناسبتْ جملةُ التَّذييل سياقَ الآيةِ، والواوُ استئنافيَّةٌ، كما استعملت الجملةُ الخبريَّةُ في التَّهديد[1]، وذلك بمجازاتِهم على ظلمِهم؛ فهو عليمٌ بمجازاتِهم على ظُلمِهم يوم القيامة[2]، كما أنَّ جملةَ التَّذييلِ تُعدُّ كالمَثَلِ في الكلام، كما تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ؛ لعمومِ معناها واتِّساعِه.

تَنَوّعُ المَقاصدِ البَلاغيَّةِ في جُملةِ التَّذييلِ دليلٌ على ثرائها المعنويّ واتِّساقِها الدّلاليّ

سرُّ التَّعبيرِ بجملةِ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾:

الفِعْلُ وَجَدَ مِنَ الْوِجْدَانِ الْقَلْبِيِّ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ[3]، وهو مختصٌّ بما يقعُ بعدَ التّجربة[4]؛ أي: إذا تتبَّعْتَ أمورَهم، وخبرتَ أحوالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ، سَتَجِدُهُم على صفةٍ لازمةٍ لهم، وستكونُ هذه الصِّفةُ علامةً لهم يُعرَفون بها، وهي كونُهم أشدَّ الطَّائفتينِ حِرصًا على حَياةٍ؛ فهي دعوةٌ قرآنيَّةٌ إلى معرفةِ النَّاس والإحاطةِ بأحوالِهم وصفاتِهم؛ كيلا يقعَ المسلمُ ضحيَّةَ الانخداعِ بما يُقال من أكاذيب في الأسمارِ.

دعوةُ القرآنِ إلى خُبْرِ النَّاس ومعرفةِ أحوالِهم عن قُرْبٍ، وعدمِ الاكتفاءِ بظاهرِ الحالِ

بديعُ المُناسبةِ والانتقالِ:

لمّا بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حالَ اليهودِ في عدمِ تمنّي الموتِ، ناسبَ بيانَ حالِهم في حرصِهم على الحياةِ، وهذا من تتميمِ المعنى وتكميلِه، فهو انتقالٌ من جزءِ الغرضِ إلى مُتمِّمِه؛ إذْ عدمُ تمنّي الموتِ لا يلزمُ منه أن يكونوا أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وهذا في غايةِ تقبيحِ حالِهم، بأن يجعلَهم أحرصَ النّاسِ على الإطلاقِ.

تتميمُ المعنى وتكميلُه بغرضِ تقبيحِ الحالِ

نُكتةُ اقترانِ اسْمِ التَّفضيل بحرفِ الاستعلاءِ:

وردَ اسمُ التّفضيل ﴿أَحْرَصَ﴾ للدّلالة على استغراقِ حرصِهم لِمَا أُضيفَ له، فجاءَ مُضافًا إلى النَّاس، والمعنى: لتجِدنَّهم أحرصَ كلِّ

استعلاءُ اليهودِ على أعلى مراتبِ الحِرصِ بين النَّاسِ

(1) الواحدي، الوسيط: 1/177.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/132.

النَّاس على حياةٍ، وَالمُرَادُ مِنَ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ جَمِيعُ النَّاسِ؛ أَيْ: جَمِيعُ البَشَرِ فَهُمْ أَحْرَصُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ الْحِرْصَ على الْحَيَاة غَرِيْزَةٌ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ فِيهِ مُتَفَاوِتُونَ قُوَّةً وَكَيْفِيَّةً وَأَسْبَابًا[1]؛ فهم أحرَصُ النَّاسِ جميعًا، فعلى فَرْضِ أنَّ للنّاسِ منازلَ معهودةً فهم في أعلاها، وهذا سرُّ ذكر حرفِ الاستعلاء؛ فلم يقُل: في الحياةِ؛ أي: هم مُستعلونَ في حِرصِهم، دونَ حياءٍ أو خجلٍ.

بلاغةُ عطفِ المشركين على النَّاسِ:

المبالغةُ في ذمِّ اليهودِ، والتَّرقي في ذمِّهم، وعطفُ الخاصِّ على العام

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ على (النَّاسِ)، وجاءَ بـ (مِنْ) التفضيليَّة، ولم يقلْ: (أحرصَ النَّاسِ والمشركينَ على حياةٍ)؛ ولمّا كانوا مختلفين عن المشركين في الوصف، فهم أهل كتابٍ، فالأصلُ فيهم الإيمانُ بالغيبِ وعدمُ الحرصِ على الحياةِ؛ فأفادَ اسمُ التّفضيل:

1- المبالغةَ في ذمِّ اليهودِ في حِرْصِهم على الحياةِ.

2- التَّرقيَ في ذمّهم بمجيء المعطوف ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ بعد النَّاسِ.

3- عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ لنكتةٍ في الخاصِّ، وهو بيانُ شدّةِ حرصِهم مقارنةً بأشدِّ النَّاس حرصًا على الحياةِ، وهم المشركون، فهو حرصٌ من ورائه حرص.

نكتةُ التَّنكيرِ في مفردةِ ﴿حَيَوٰةٍ﴾:

التَّنويعُ بقصدِ جمعِ التَّقليل والتَّعظيم

نُكِّرَتِ الحياة في الآيةِ قَصْدًا لِلتَّنْوِيعِ؛ أَيْ: كَيْفَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ[2]؛ لأنّ المرادَ أيُّ حياة كانت عزيزةً أو ذليلةً، فالمطلوبُ أنْ يكون لهم حياة متطاولة[3]؛ فتضمَّن التَّنكيرُ معنى التقليل؛ فهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/178، والزمخشري، الكشاف: 1/168، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/377.

أحرصُ النَّاس على أيِّ حياة، ولو كانت حقيرةً، فهي خيرٌ من الموت لما يتوقّعون من سخط اللّه يوم القيامة، كما تضمَّن التنكير معنى التعظيم، من وجهٍ آخرَ؛ لأنّهم كانوا أحرصَ النَّاس على الحياة المتطاولة، وهذا من بديع لطائفِ بلاغةِ القرآن، بأنْ يجتمعَ معنى التَّقليل ومعنى التَّعظيم في كلمةٍ واحدةٍ.

فائدة التعبير بـ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

الكشفُ عن مكنوناتِ ما تحويه النُّفوسُ من التَّمسُّكِ الشّديدِ بالحياةِ

أفاد التّعبير بصيغة المضارع (يودّ) تجدّد حدوث هذا الودّ، وبدلًا من أن يقول: يتمنّى أحدهم لو يعمّر ألف سنة ليكون مقابلًا لنفي تمنّيهم الموت كما يبدو ظاهرًا، قال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾؛ ليدلَّ (يودّ) على حبّ كلّ واحدٍ منهم وشغفه بأن يُعمّر في الحياة الدّنيا، ولأَنَّ التّعمير ألف سنة بالنّسبةِ لطبيعة تفكير اليهوديِّ ليس مستحيلًا، فهو أمرٌ مستقرٌّ بوجدانه؛ استعمل مع التَّعمير الفعل (يودّ)، ولـمّا كان تمنّيهم الموتَ غيرَ ممكن استعمل معه فعل التّمنّي، ولكي يفيدَ أَنّهم لنْ يصلوا إلى التّعمير ألف سنة اقترن (يودّ أحدهم) بـ(لو)، فتولّد معنى التّمنّي مجازًا[1]، لِمَا تفيده (لو) من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التّركيب حبّهم الشّديد المشوب بالتّمنّي لما لا مطمع لهم في وقوعه في المستقبل.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾:

دلالة الاستغراقِ الحقيقيِّ لكلِّ فردٍ دون استثناء

ليس المرادُ بـ﴿أَحَدُهُمْ﴾ قولَ واحدٍ مُعيَّنٍ منهم، بل هو عامّ على البدليّة؛ أي: يستغرقُ كلَّ أحدٍ منهم واحدًا واحدًا منهم على البدل[2]، فهو تمثيلٌ لصورةِ كلِّ واحد منهم بمفردِه؛ أي: ليس هذا الحالُ خاصًّا بواحدٍ دون الآخر، بل هو أمرٌ عامٌّ يستغرقُ الجميعَ دون استثناء.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 304، والشهاب الخفاجي، كفاية القاضي: 2/209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.

دلالة الفعلِ المُضارِعِ ﴿يُعَمَّرُ﴾:

دلَّتْ صيغةُ الفعلِ المضارِعِ على أنَّ وِدادَ التَّعميرِ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الحياةِ، فهم يودُّون باستمرارٍ أن يُعمَّروا باستمرارٍ، فهم لا يطلبون عُمرًا واحدًا؛ بل يطلبون العمرَ تلو العمرِ إلى انقضاءِ الحياةِ كلِّها.

دلالة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ على التَّكثيرِ:

كنايةٌ عن الحياةِ كلِّها وليست كنايةً عن خصوصِ العددِ

لم يُقصَدْ بـ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ خصوصُ العددِ بعينِه؛ بل جرى ذكرُ هذا العددِ على معنى التَّكثير، وهو أسلوبٌ معروفٌ في الكلامِ العربيِّ، والمعنى: يودّون البقاءَ أطولَ مدّةٍ مُمْكنةٍ في الدُّنيا خوفًا من الموتِ أو ممّا بعده، فيكون (ألفَ سنةٍ) كنايةً عن الزَّمان الطّويلِ بينَ أبناء جنسه[1].

مناسبة كلمة ﴿سَنَةٍ﴾ للسِّياق:

بيانُ اختيارِ الزَّمنِ الذَّليلِ على الموتِ خوفًا ممَّا بعدَه من الشَّقاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريم كلمةَ سنة دون كلمة عامٍ أو حِجّة؛ لأنَّ السَّنة تُستعمل غالبًا للحولِ الذي فيه جدْبٌ وضيقُ عيشٍ وكدٌّ وتعبٌ، بخلافِ العام فهو يُستعملُ غالبًا للحول المخصِب الذي فيه خير؛ فناسبَ السّياقَ ذكرُ كلمةِ سنة؛ فإنّه لما كان المرادُ ذمَّهم بسببِ حرصِهم الشَّديد على بقائهم في الدُّنيا على أيِّ حالةٍ ذليلةٍ أو عزيزةٍ، ناسبَ ذكرُ السَّنةِ لبيانِ أنَّهم يودُّون الحياةَ ولو كانت متناهيةً في الذُّلِّ على أسوأ الأحوال من ضيق العيش والقحط والتعب فهي - كما يَظُنُّونَ- خيرٌ لهم ممَّا بعد الموت لتحقُّقِ شقائهم[2].

دلالة الباءِ على استغراقِ النَّفْيِ:

أفادت الباءُ تأكيدَ النَّفي واستغراقَهُ لِأَيِّ نوعٍ من الزَّحزحَةِ من العَذابِ[3]، ففيه وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ رادعٌ.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/609، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/63.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/325.

مُناسَبَةُ تَكرارِ الصَّوتِ لِدلالة المَعْنى المُعْجَمِيِّ:

ثِقَلُ الصَّوتِ يدلُّ على ثِقَلِ الحَرَكَةِ

تكرار الصّوتين في (زحزح) يدلّ على حركة التَّباعدِ ببُطْءٍ وتثاقُلٍ وجُهدٍ، والتَّكرارُ الصَّوتيُّ الموجودُ في الكلمةِ يوحي بمعنى الثِّقَلِ وبطءِ الحركةِ، فتنسجمُ الدّلالة المعجميَّةُ معَ الإيحاءِ الصَّوتيِّ؛ لِتمثِّلَ هذهِ المفردةُ بإيقاعِها الصَّوتيِّ حركةً مكرَّرَةً فيها ثِقَلٌ وتباطؤٌ وجهدٌ، وكأنّ أحدَهم يودُّ ببقائِه في الدُّنيا أنْ يتزحزحَ، ولو قليلًا من مكان العذابِ، فجاء الردّ الإلهي الحاسم بالنَّفي المؤكّد بـ(الباء) في أنَّ تعميره في الدّنيا لا يؤثِّر في إزالة العذابِ أقلَّ تأثير، وإذا انتفى الأقلُّ انتفى الأكثرُ، ولو قال اللّه تعالى: (وما هو بمُبْعِدِه) أو (وما هو بمُنْجيه) لم يدلَّ على قِلَّةِ التّأثيرِ كدلالة هذا القولِ[1].

بديعُ التَّصدير:

مُناسبةُ ختمِ الآيةِ لِصَدرِها

من بديع اختتام الكلام أن يناسِبَ آخرُه أوَّلَه في المعنى[2]، ولمّا جاءت الآيةُ مُصدّرة بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ على معنى لَتُلْفِيَنَّهُمْ بعدَ خِبرةٍ بأحوالِهم، ومعرفةٍ بدقائق أمورهم؛ دلّ هذا على نفي علمِ أحدٍ من النّاس بما يخفونَه من أعمالِهم وأحوالِهم، فناسبَ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ فتشابهَ طرفا الآيةِ صدرُها مع فاصلتِها، وفائدةُ النُّكتة البلاغيَّة بيانُ أنّ ما خَفِيَ على رسولِ اللّه ﷺ وعلى المؤمنين من أعمالهم فاللّه بصيرٌ به، وسيجازيهم على فعلِهم.

تضمينُ الخبرِ معنى التَّهديد:

تضمَّنَتِ الجملة الخبريَّة: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، فهي تحملُ معنى مجازاتهم بالتّعذيب لما فعلوه، كما تقول لمن يعصي: قد رأيتُ ما فعلتَ؛ فيكون تهديدًا له بالعقاب وتوبيخًا لمعصيته[3]، ولمّا كانت جملةُ التّذييل تتضمّن عمومَ المعنى؛

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/610.
(2) الخطيب القزويني، الإيضاح، ص: 507.
(3) الشهاب، عناية القاضي: 2/339، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/619.

لتضَمُّنِها ألفاظَ العمومِ ومعانيه، مثل (ما) الموصولة في الآية، فالتَّهديدُ والتّخويفُ لا يخصُّهم؛ بل يعُمُّ كلَّ مَنْ يَجترحُ السّيّئات، لكنَّهم يدخلون دخولًا أوَّليًّا بسياقِ الكلامِ وسباقِه.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

لـكـلِّ سِـيـاق نـظـمُـهُ، ولـكـلِّ كـلامٍ اعـتـبـارُه المُنَاسِبُ لَهُ

جاء نظمُ هذه الآية بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، بخلافِ نظمِ آيةِ الجمعة بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، مع اتِّحادِ الخَبرِ مِنْ جِهتين:

المُناسبة في قوّة الدّعوى: ففي هذهِ السّورةِ ادّعَوا دَعوى بَالِغَةً قاطِعةً هي نهايةُ مطلبِ المؤمن، وغايةُ سَعيِه، فقد عُلّقت صحَّةُ الشَّرطِ، وهو كونُ الدَّارِ الآخرةِ لَهم عند اللّه سالمةً خاصةً، بتمنِّي الموتِ، فوجبَ أنْ يكونَ بطلانُ تمنّي الموتِ المقتضي بطلانَ كونِ الدَّارِ الآخرةِ لهم أقوى ما يستعملُ في بابِهِ، فَبَالغ في الرَّد عَلَيْهِم بـ(لن) التي تفيد تأكيد النَّفي، وهي أبلغُ أَلْفَاظ النَّفْي، وفي سورةِ الجمعة ادَّعوا أَنَّهم أَوْلِيَاءُ اللّه، وليس هو المطلبَ الذي لا مطلوبَ وراءَه، فهي دعوةٌ قَاصِرَةٌ؛ لأَنَّهم وإنْ كانوا أولياءَ اللّهِ حسبَ زعمِهم سيطلبونَ بعدَ ذلك الدّارَ الآخرةَ، فاقتصر على (لَا) التي هي لنفي الحال والاستقبال من غير تأكيد. [1]

المُناسبةِ في الزَّمنِ: لـمَّا كان الواردُ في سورة البقرة جوابًا لشرطٍ فيما يستقبل، وهو قوله: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾، فالدّارُ الآخرة حُكمٌ أخرويٌّ يكون في المستقبل؛ جاء جوابُه بـ(لنْ) التي تخصُّ الاستقبال، فإنّ (لنْ يفعلَ) نفيُ (سيفعلُ)، ولـمَّا كان الشَّرطُ في سُورة الجمعةِ يتعلَّق بالحياةِ الدّنيا، وهي حكم دنيويٌّ، ووصفٌ حاليٌّ لا استقبالَ فيه، وهو قوله: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، فزعمُهم أنَّهم أولياءُ اللّه هو في الدُّنيا، فناسبَه الجوابُ بـ(لا)، التي تدخلُ على الحال[2].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 267، وابن جماعة، كشف المعاني: 1/103.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/47، والكرماني، البرهان في متشابه القرآن: 1/91.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

سَنة وعام:

للعلماء في الفرق بين سنة وعام قولان:

الأول: أنّهما بمعنى واحد، ولا فرق بينهما.

الثاني: أن استعمال القرآن للفظ السّنة يكون في الشقاء والجدب والشّدّة، بينما العام يكون في الرّخاء والخصب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49][1].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»